نظرية النقد النسائي بين المنجز والمأمول
قراءة في الخصائص والأهداف

طالب الدكتوراه: هيثم بن عمار
قسم الآداب واللغة العربية
معهد اللغة وآدابها
المركز الجامعي الونشريسي- تيسمسيلت

مقدمة:

من المؤكد- بداية- أن حاجتنا تزداد مرحلياً إلى قراءة المشروع المنهجي في العلوم العربية، لاسيما حين سُلطت الأضواء في المرحلة الحالية على تطور المناهج في جميع الميادين وبكل فروعها، ليأتي التجديد في مناهج الدرس الأدبي والنقدي مطلوباً من خلال عدة توجهات واعتبارات أساسية. إذن إن ما تشهده الحركة النقدية المعاصرة اليوم من زحمة في المناهج والتيارات، وزخم في التحولات التي مرت بها بعض القيم والمعايير التي أفرزت نوعا من الفوضى والتشويش والضبابية والخلط الناتجة عن الانفتاح على قيم الآخر، وثقافته وتطلعاته إلى حد التطبيع الفكري والتقليد المنهجي اللغوي، لكن بالرغم من هذا يبقى النقد النسوي كمجال بحث باعتباره تيارا نقديا ظهر تحت إلحاح الحاجة إلى تمكين الذات- المرأة- وتحقيق الهوية ليكون امتدادا للكتابة النسائية، لا على أنها مجرد كتابة اختلاف شكلي يحدده النوع والجنس، بل باعتبارها كتابة تملك سماتها الخاصة خارج أي فوارق عنصرية تميز المرأة عن الرجل. فمع بزوغ شمس العصر المعاصر فإذا بالقرائح تتفتح، والأفكار تنجلي والاجتهادات تظهر هنا وهناك، وأخذت الناقدات تؤسّسن لفكر نقدي أدبي تحدوهم في ذلك رغبة جامحة في تأسيس نظرية نقدية مكتملة التكوين لها معالم واضحة في الواقع المعاصر.

وانطلاقا من هذا المنطلق تتراءى لنا جملة من الأسئلة نراها تشكل بؤرة عملنا هذا ومحور النقاش لهذه المداخلة المتواضعة لعل من أبرزها: ما هي أهم خصائص التي تميز النقد النسوي باعتباره رؤية أو ممارسة؟ وفيما تمثلت أهدافه باعتباره تيارا نقديا جاء لإلغاء وإزلة التعصب الوظيفي على أساس الجنس؟

1- واقع النقد النسوي:

احتفت ساحة الأدب والنقد في السنوات الماضية احتفاء غير مسبوق بنتاج المرأة الأدبي، واعتبرته ظاهرة أدبية فارقة في مسيرة الإبداع الإنساني الذي طبع تاريخيا بطابع الهيمنة الذكورية البارز على جانبيه النقدي والأدبي، ثم ما لبثت تلك الهيمنة الذكورية أن تراجعت بانحدار أشكال القهر المختلفة، وبروز أصوات النساء المطالبات بحقوقهن في مختلف ميادين الحياة، اللاتي اتخذن الكلمة والتعبير المكتوب من أدواة هذا الكفاح التاريخي لإبراز الكينونة والمحافظة عليها. إذن فقبل الخوض في مسائل متعلقة بأهداف وخصائص النقد النسوي لا بد من تحديد مفهومه، وإن كان هناك اختلافا واضحا بين النقاد حول ماهيته.

إن تحديد مفهوم للنقد النسوي يتطلب منا الثبات والدقة، إذ لا يختلف اثنان على أن فوضى المصطلحات والمفاهيم أزمة شائعة في متون المؤلفات العربية المعاصرة لعل محاولة البحث في حيثيات هذا التيار النقدي وتتبع ديناميته، أمر محوف بالزئبقية، أين يعتبر القارئ المتصفح لمضامينه على تعدد مفاهيمه ما يجعل التسمية تنفتح على التعدد في كتاباتهم وأطروحاتهم. ولصعوبة تحديد مفهوم النقد النسوي في جنسه الخاص به، ولأنه أيضا يختلف عما يختلط به من أشكال فنية أخرى، فقد حاول المهتمون عزل سماته الرئيسية التي لا يخالط فيها غيره كسبيل إلى منحه هويته الخاصة.

فالنقد النسوي إذن؛ وكما يرى البعض بأنه ذلك النقد الذي يهتم بدراسة تاريخ المرأة وتأكيد اختلافها عن القوالب التقليدية التي توضع من أجل إقصاء المرأة وتهميش دورها في الإبداع، ودراسة كيفية تأثر المتلقي بالصور الإقصائية والاختزالية للمرأة.[1] كذلك يقدم الناقد حسين المناصرة تعريفا آخر خاصة عندما اعتبر النقد النسوي منهجا وممارسة نقدية يقوم بها كل من الرجل والمرأة يقول[النقد النسوي خطاب نقدي أو منهج نقدي يتبناه الرجل والمرأة دون التفريق بينهما في هذا الجانب][2]، إذن من خلال هذا يشير

الناقد إلى أن هذا النقد يغاير السياق النقدي الذكوري يقول[يطرح النقد النسوي- بوصفه منهجا نقديا- على قاعدة أنه رؤية نقدية ثقافية جمالية جديدة، أي أنه نقد يغاير السياق النقدي الثقافي الذكوري المهيمن دون أن يلغي هذا الوصف، كون النقد النسوي بامكانه أن يتحول إلى مناهج تحليلية واجتماعية وواقعية وثقافية وجمالية...][3] في حين يرى البعض أن النقد النسوي لم يرتقي بعد إلى مرتبة المناهج، فأطلقوا عليه الاتجاه أو التيار وفي ذلك يقول بسام قطوس[النقد النسائي والنقد الثقافي لم يرقيا بعد إلى مرتبة المناهج، آية ذلك لم نرها تخضع لمنطق علمي متماسك، ولا تقوم على خلفيات فلسفية واضحة، ولا تقدم مفهومات أدبية محددة في إطار نظري متماسك.][4]

إذن من خلال هذا الآراء تنتابنا بعض التساؤلات التي قد تميل كفة من يعتبرون النقد النسوي مجرد تيار أو اتجاه فكري فقط لا يرقى أن يكون منهجا منها: هل يمكن أن تكون هذه المناهج التي تتصف بالعمومية وتنتسب إلى طابعها التكويني أن تخضع للتجزئة والقسمة فتقبل بهذا الوصف للنقد بأنه ذكوري أو نسائي؟ وهل يمكن للمرأة أن تستغني عن الموروث النقدي الذي كتبه الذكور لتبدأ من نقد يمكن أن تسميه نقدا نسويا؟ فمن خلال هذه الرؤى المتضاربة في تحديد مفهوم النقد النسوي أو بيان صيغته كتيار أو منهج تبقى مجرد رأي، إذ ولا بد لا ننسى أنه قد قدم لانجازات نقدية ضخمة ترقى إلى مستوى الثورة النقدية التي تستحق من نقادنا الدراسة والاهتمام، وخاصة في تحليل هذا النقد الجديد للأدب النسائي، وفي بلورة مجموعة من الاستراتيجيات النقدية التي تمكن الناقد من الكشف عن تيارات المعنى السارية في خطابات المرأة الأدبية.[5]

خصائص النقد النسوي:

لقد ارتبط النقد في الفكر ما بعد حداثي بأسلوب فكري جديد، كان أهم ما ميزه الدعوة إلى مجاوزة الذات ومعرفة الآخر، ما زاد في ربط جسور التواصل بين الأنا والآخر، وبالتالي بين الثقافات، أدى هذا الأخير إلى بلورة رؤية نقدية جديدة أنبأت بميلاد عصر نقدي جديد، يؤمن بضرورة التحول والانتقال لتأسيس رؤية. فكان النقد النسوي أكثر التوجهات النقدية والمعرفية التي عرفها مجال التفكير النقدي، التي توالت بوصفها رؤية أو ممارسة نقدية محاولة أن تبني مقولات هذا التيار والتمثيلات المضمرة داخله.

وإذا اعتبرنا هذا النقد لا يتبع نظرية واحدة أو إجرائية محددة، وإنما تتسم ممارساته بتعدد وجهات النظر ونقاط الانطلاق وتنوعها، كما أنه يفيد من النظرية النفسية السيكولوجية والماركسية ونظريات ما بعد البنيوية عموما، وعلى الرغم من نزعة التعدد هذه إلا أن هناك مفاهيم معينة تجمع هذا الشتات أهمها: عامل الاختلاف الجنسي في إنتاج الأعمال الأدبية وشكلها ومحتواها وتحليلها وتقييمها، كان لابد من أن يستلزم وعيا بالخصائص المتمثلة له لأن الوعي بذلك والوعي بالدور الذي يؤديه هما القدمان اللتان تقودان خطواته وتوجهاته، لذلك سنحاول أن نبرز بعض خصائص هذا التيار.[6]

فالثقافة الغربية كما نعلم إذن، هي ثقافة الذكر(الأب) أي ثقافة تتمركز على المذكر الذي يحكمها، ولذلك فهي تنتظم بطريقة تهيئ هيمنة الرجل ودونية المرأة في كافة مناحي الحياة ومفاهيمها(الدينية، العائلية، السياسية الاقتصادية، الفنية والأدبية) هذه الهيمنة أفضت بالأنثى(المرأة) إلى ضرورة تبني هذه البنية الأيديولوجية أو هذا التيار الفكري وأصبحت تجسدها في حياتها وفكرها حتى أصبحت كالرجل ترى دونية نفسها كبديهية مطلقة.[7]

إذا كان الشائع أن العوامل الطبيعية هي التي تحدد النوع البشري(ذكر، أنثى) فإن هذا النوع ومفهومه هو بنية ثقافية أنتجتها التحيزات الذكورية السائدة في الثقافة الغربية، حتى يتسم المذكر بالإيجابية والمغايرة والعقلانية والإبداع، بينما تتصف الأنثى بالسلبية والرضوخ والارتباك والتردد والعاطفية وإتباع العرف والتقليد، لذلك جاء النقد النسوي ليطالب بإنصاف المرأة وجعلها على وعي بحيل الكاتب الرجل خاصة فيما تعلق بالموروث الثقافي الأدبي، وإبراز الكيفية المتحيزة التي بها يتم تهميش المرأة ثقافيا.[8]

الأهداف:

إذا كان النقد النسوي كتيار أو كخطاب منظم ظهر في الستينات الميلادية، واعتمد على حركات تحرير المرأة اجتماعيا وثقافيا وفنيا وأدبيا، فإنه يتجه بشكل أساس إلى نقد الطرح النقدي الذكوري السائد وإنكار ثبات الذات في منظومة الإبداع، وتحويل مسار المحاكاة للأشكال السائدة وتقاليدها المهيمنة.

– محاولة تحديد هوية المرأة بوصفها ذاتا فاعلة خلاقة، تتحدد هويتها الأدبية بتوقيع هويتها الجنسية.

– محاولة البحث عن صياغة بديلة، خاصة بعدما تحددت خصوصية النقد النسوي بالتمركز حول الذات ورفض السلطة الذكورية والبحث عن الحرية.[9]

– بما أنه يختص بجانب المرأة فإنه يميل إلى التركيز على عالم المرأة الداخلي (...) الشخصية والعاطفية من خلال القراءة النقدية لأعمال المرأة.

– الاهتمام بالتاريخ المهمش، وذلك من خلال اكتشاف التاريخ الأدبي الموروث للمرأة، لذلك ترى إلين شوستر[أن تراثنا بأكمله من الكتابة النسائية قد أغفله النقاد، هذا التراث هو القارة المفقودة من التراث الأنثوي...]

– السعي إلى فرض نموذج على الدراسات النقدية وذلك بإلغاء الفروق بين الذكر والأنثى فيما يسمى بالجنوسة.

– السعي إلى تحديد سمات خاصة بلغة المرأة ومعالمها والأسلوب الأنثوي المتميز في الكلام المنطوق(الحكي) والمكتوب(كبنية الجملة، وأنواع العلاقات بين عناصر الخطاب...) حتى أننا نرى[هيلين سيكوس] في مقال لها بعنوان" ضحكة الميدوزا" بيان شهير عن الكتابة النسائية (...) والتي تقول فيها[اكتبي نفسك، يجب أن تسمعي صوت جسدك، فذلك وحده هو الذي يفجر المصادر الهائلة] كذلك ما تقدمه فرجينيا وولف عن الكتابات تأثيرا ولفتا للانتباه في مقالة لها بعنوان[حرف للمرأة] تدعو المرأة إلى استخدام المداهمة والحيل النسائية لتخلق زمان الكتابة ومكانها.[10]

– لقد قامت النظرية النسوية على افتراض ضمني هدفه إيجاد حياة أفضل للمرأة، من خلال تحريرها من الاضطهاد، كذلك محاولة تأسيس هوية جديدة للأنثى تضطلع فيها بأدوار ووظائف كانت قد حرمت منها في تاريخها السابق، ولعل أهمها التعبير والكتابة.

– محاولة الفرار من ثبوتية وقطعية النظرية، وتطوير خطاب أنثوي لا يمكن تقييده فكريا بنسبته إلى تراث نظري معترف به.[11]

– ومن أهدافه أيضا أنه جاء لإقصاء القراءة الأبوية واستبدالها بقراءة أخرى أكثر صحة، يكون لها حضور مساو للقراءة التي تعكس رؤية الرجل فقط.

– الاهتمام بالإنتاج الأدبي النسائي من كافة الوجوه، الحوافز النفسية، السيكولوجية والتحليل والتأويل والأشكال.[12]

– تحديد وتعريف موضوع المادة الأدبية التي كتبتها المرأة وكيف اتصفت هذه المادة بسمة الأنوثة. وكذلك الاهتمام باكتشاف تاريخ أدبي للموروث الأنثوي، كذلك محاولة غرساء صيغة التجربة الأنثوية المتميزة أو" الذاتية الأنثوية" في التفكير والشعور والتقييم وإدراك الذات والعالم الخارجي.

– والهدف الصريح للنقد النسوي هو استيعاب الإنتاج الأنثوي الموروث والمعاصر الذي أهمله الرجل طويلا. وإعادة فتح وتنظيم وتوسعة الموروث الأدبي المتمثل في مجموعة الأعمال الأدبية التي أصبحت المادة الرئيسية حسب العرف التقليدي التي تستحق الدرس والتاريخ الأدبي والنقد والتحليل، حتى يستوعب الإنتاج الأنثوي الذي طال إهمال الرجل له.

وبعد كل ما سبق وتلخيصا لما أثاره النقاد من آراء ودراسات حول تيار النقد النسوي بعدما ظهرت فيه بوضوح شخصية المرأة المتكاملة حين نجحت في وضعه في بوتقة حسها المرهف وذكائها الخاص. لتصنع منه سبيكة منهج مطهرة من القصور المنهجي. جعلته ينتظم في إطار مشروع همه الحفر عن الأنساق والطموح إلى تطوير فاعلية النقد من كونه أدبيا ذكوريا إلى كونه أدبياً أنثويا، بحيث يمكن إعادة قراءته والبحث له عن نسق يؤهله لأن يصبح نظرية.

الهوامش:

1) إبراهيم الخليل: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص 135.

2) حسين المناصرة : النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008، ص 141.

3) المرجع نفسه: ص 140.

4) بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2006، ص 218.

5) صبري حافظ: أفق الخطاب النقدي، دار شرقيات للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص 249.

6) ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 330.

7) ينظر: المرجع نفسه، ص 330.

8) ينظر: المرجع نفسه، ص 330.

9) ينظر: نازك الأعرجي: صوت الأنثى، دار الأهالي، دط، دمشق، سوريا، 1997، ص 35.

10) ينظر: رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، دار قباء للنشر، دط، القاهرة، مصر، ص 205.

11) المرجع نفسه، ص 138.

12) ينظر: عبد الله إبراهيم: في السرد النسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دط، 2013، ص 11.